تمهيد

إن الحدث يفرض نفسه، وحتى في هذه اللحظات المتعارضة فإنه يجرف الجميع في طريقه، والوقوف عند الصورة التي يفرضها انطباع من كتاب يجعلنا نرى في الشرقين الأدنى والأوسط مشهدا يخيم عليه الدمار: ميادين عمّها الخراب والموت في لبنان، حزن وعزلة في إسرائيل فوضى في فلسطين، وفي العراق جروح بشعة بسبب الحرب الأهلية. نعم. إن الشرق أحمر، أحمر من وهج الحرائق، لكنه أسود أيضاً من الغيوم القاتمة التي تتكاثف عند الأفق، هل سنرى قريباً في السماء من طرفها إلى طرفها الآخر الفرسان الأربعة يمرون ليعلنوا نهاية العالم كما ورد في سفر النبوءة التوراتي؟.

في المقام الأول، هناك رجل وربما رجلان، يتخذان وضع المترقب.

الرجل الأول: محمود أحمدي نجاد رئيس جمهورية إيران الإسلامية. ولا شك أنه لم يقرأ سفر القديس يوحنا، ولكنه أصغى بورع شيعي إلى عودة الإمام الثاني عشر، وهو الإمام الغائب الذي سيقيم في آخر الزمان، السلام والعدل على الأرض.

أما الرجل الثاني فربما كان جورج بوش، المسيحي المتجدد روحياً الذي يرى بعض المقربين منه في أهوال الشرق الأوسط علائم لنهاية العالم كما ورد في الكتاب المقدس، وبالنسبة للرجل الأول وكذلك للرجل الثاني فإن

النجاح يريح منهما النفس بسبب عدالة قضية كل منهما، ولكن إذا كان ما يظهر الآن هو البؤس فإنه يمنحهما الأمل بأن يوم الدينونة أصبح قريبا.

فأحمدي نجاد عندما يبتهل إلى الله ليعجل فرج الإمام الغائب في نهاية خطبته في الجمعية العامة للأمم المتحدة في صيف عام 2005، فقد كان يشعر آنذاك بأنه محاط بهالة من نور، أما بوش فقد سمع الله يقول له: اذهب إلى العراق، ها هما كلاهما يتحدثان على الأقل في ظل الروع من الآتي.

لا الأول ولا الثاني يتلاعبان، فالأول يقصد إسرائيل والثاني حزب الله ولكن كل واحد منهما تهتز نفسه بكل قواها لنجاح البطل الذي يدعمه وبشرف عليه، كما يسعى كل منهما أن يرى في المعركة التي يقترب من إنهائها ما ينقصه، وبالتالي ما بقي عليه أن يفعله ليشكل الشرقين الأدنى والأوسط وفق رؤيته للعالم، نعم، فإيران وأمريكا يسبر كل منهما في هذه اللحظة أعماق عيون الآخر، وفي النهاية الخلفية للميدان يقبع الرهان الكبير للصراع: رمز الانتصار، المدينة المقدسة، القدس.

هناك إذاً بعد يمتد آلاف السنين في المعتقدات التي تجابه بعضها بعضاً، وهذا بعد كل شيء أمر طبيعي عندما ننتقل من ألفية إلى أخرى. وذات يوم بعيد، بعيد جداً ربما سيكون الاسم الذي سيطلقونه على عصرنا، عندما نتكلم عنه نحن أنفسنا: عصر الرعب الكبير في ختام عام 1000 الميلادية.

وأخيراً، ليس هناك ما يؤكد أن القادم هو الأسوأ، وحتى لو ترقبنا معركة هرماجيدون الكبرى، بل وحتى ذوبان القطبين، فلا بد ان نعيش

حياتنا بأفضل ما نستطيع، وعلينا أن نحاول في نفس الوقت أن نفهم كيف وصلنا إلى حالنا هذه، وهذا يتحقق عبر بذل جهد ليفهم أحدنا الآخر. وبالتالي لنفهم إيران.

هذا هو هدف الكتاب، إنه ليس مذكرات دبلوماسي أبدا، ولا رواية لرحلة ما، إنه وقفات أمام مقابلات عرضية يصعد نحو ذرى السياسة والمجتمع ثم يهبط ليروي وقائع صغيرة جداً، وبهذا نستطيع أن نتوجه نحو كل الاتجاهات.

إذا كان القارىء مهتما قبل كل شيء بأحداث اليوم، فعليه أن يبدأ دون تردد بالفصل الأخير المكرس للملف النووي، أو أيضاً بالفصل الخامس الذي يتحدث بالتفصيل عن العلاقة المؤلمة بين إيران وأمريكا. أما إذا كان يفضل أن ينفذ أولا إلى الجذور، فليترك نفسه ببساطة ليقوده مخطط الكتاب، وسيرى إلى جانب الجمهورية الإسلامية، وأهدافها ودوافعها، ظهوراً متدرجا لإيران أخرى، ليست أقل حقيقة من إيران في صورتها المألوفة.

إيران هذه، العميقة في أصالتها هي من جهة وريثة نضج طويل جدا وغنى في قواها الكامنة، ومن جهة أخرى لا يجوز عزلها عن النظام السياسي، هاتان الصورتان لإيران، اللتان تكونت الواحدة منهما من الأخرى، تمتزجان بشكل حميمي، حتى ولو ظهراً غالبا أنهما متناقضتان. إننا نتعلم في هذه المنطقة أن نأخذ بعين الاعتبار بأن الحقائق المتناقضة تتراكب مع بعضها البعض وكأنها درجات متعددة لبئر تختبىء في قعرها «الحقيقة» الخالصة، نعم. للحصول على صورة أخرى، صورة الأسطورة

المانوية القديمة التي يمكننا تطبيقها على إيران اليوم، فإننا نستسلم لأمل أن الجزيئات التي لا تحصى من الضوء المتناثرة في الظلمات ستندمج شيئا فشيئا كي تنتصر في النهاية على الظلام.

باريس، آب 2006